فى النقد الأدبى

# الحقيقة فى الأدب

## معناها ـ قيمتها ـ مقاييسها النقدية ـ جدّتها ـ صحتها ـ صلتها بالأدب

بقلم الأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب

— ١ —

يُطلق بعض النقاد على موضوع اليوم : العنصر العقلى فى الأدب — The intellectual Element in Literature — ويعنون به الحقيقة أو الفكرة التى يحتويها النص الأدبى بجانب العناصر الأخرى من لفظ ، وخيال ، وانفعال ( عاطفة ) . وقبل أن نسير فى البحث نحاول أن نبين هذا العنصر بالتمثيل له أولا . ثم ماتراه أصلح الأسماء له ثانياً . قال أبو العلاء المعرى :

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهة وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيامُ حتى كأننا زُجاجٌ ولكنْ لا يُعاد له سبكُ

أذكر أن هذا المثال قد مر بنا قبل اليوم ، وإنما أذكره ثانياً لبيان هذا العنصر العقلى فيه حتى يكمل تحليله . ولا شك أن الانفعال الذى يثيره هذا النص فى نفوسنا هو السخط والتشاؤم بهذه الحياة . وقد استعان أبو العلاء على بعث هذه ( العاطفة ) بهذا ( الخيال ) الزجاجى كما قدمنا فيما مضى . فهذان هما العنصران اللذان مضى فيهما الكلام .

والآن نترك العاطفة والخيال ، ونسأل عن ذلك الشىء الذى يدل عليه اللفظ دلالة وضعية : ما هو هنا ، والإجابة عن هذا السؤال سهلة ، فالمراد أن ضحك الناس خطأ ، وحقهم أن يبكوا . . لماذا ؟ لأنهم ألاعيب فى يد الأيام تهلكهم

بخطوبها ثم لا تعيدهم سالمين . هذا المراد – أو منطوق النص — هو الذى يسمى العنصر العقلى فى الأدب . وإنما دُعي كذلك ليقابل العنصر العاطفى ، والخيالى ، واللفظى ؛ إذ أنه ليس حزناً ولا سخطاً . وليس فنا من هذه الفنون البيانية التى أشرنا إليها فى باب الخيال . هو الذى تعود الناس أن يسموه المعنى مقابلا للفظ وهو الذى يطلق عليه النقاد المحدثون كلمة حقيقة Fact أو فكرة Thought أو الحق Iruth الذى يعد أساس المنشآت العقلية ، فكيف نسميه ؟ لايزال من إخوانى من يصر على أن يطلق عليه — المعنى — وهو بذلك يقابل اللفظ مجاراة للمتقدمين ، أو بعبارة أدق لبعض المتقدمين الذين لم يعنوا بهذه العناصر الأدبية الأخرى كالعاطفة والخيال . وإن أدركوا ما فيهما من قوة وجمال وأسأل هذا الفريق من إخوانى : إذا كان الأدب — كما قال الأقدمون عندنا — لفظاً ومعنى فى أى القسمين نضع سائر العناصر ؟ فمنهم من يتوقف ، ومنهم من يقول : الأدب لفظ ومعنى وعاطفة وخيال . ويكون بذلك مدعياً أنه خلق أو وضع لفظين جديدين لعنصرين جديدين .

وعندى أنه لاحاجة إلى هذا كله ، ولا معنى لهذا الادعاء . وخير لنا أن ننصف المتقدمين إنصافاً حقا ، ثم نقوى الاتصال بهم من جهة ما وضعوا من مصطلحات ، وما أدركوا للأدب من عناصر .

خير لنا أن نقول : إن الأدب — كالكلام — لفظ ومعنى . وأن هذا المعنى ينحلُّ إلى عناصر ثلاث : العاطفة والخيال ، ثم الحقيقة أو الفكرة التى هى موضوع كلامنا الآن : وقد لحظ المتقدمون ذلك كله كما بسطته فى العدد الثانى من السنة الثانية لهذه الصحيفة تحت عنوان « بين اللفظ والمعنى » ، وعلى هذا الاعتبار أسير فى موضوع اليوم متكلما فى هذا العنصر الثالث من عناصر الأدب وهو الحقيقة .

— ٢ —

فى أية درجة نضع هذا العنصر العقلى بالنسبة إلى سائر العناصر الأدبية ؟

الأدب أدبان : نوع تكون الغاية منه التعليم وأداء الحقائق والاقناع كالتاريخ

والنقد الأدبى ، والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وهو الذى أسميه أدب الثقافة ، وصار يدعى الآن الأدب بالمعنى العام ، ونوع تكون غايته مع ذلك ، التأثير وإثارة الانفعالات ، كالشعر ، والقصص ، والخطابة ، والوصف ، وأسميه أدب القوة — أو العاطفة — وهو ما يدعونه الآن الأدب بالمعنى الخاص .

فى النوع الأول نجد هذا العنصر الحقيقى فى الدرجة الأولى ، إذ أنه الغاية المقصودة ، والهدف الذى يرمى الكاتب الى نشره وإقراره فى عقول القراء ، وأما العاطفة هنا ، فتعد وسيلة تخدم الأسلوب لتبعث فيه حياة وقوة ، وتساعد بهذا على فهم الأفكار وثبوتها فى أذهان القارئين . . . والنقد الأدبى حينما يعرض لهذا النوع ، يحكم عليه أوله بناء على ما فيه من الحقائق والأفكار ، ثم لا ينسى مع ذلك مقدار ما صحب الحقائق من عاطفة تكسبها الروعة وقوة التأثير ، ويكون مثل العاطفة هنا مثل الشراب اللذيذ يذاب فيه الدواء ليسهل تعاطيه .

ولكن ما المقاييس التى يعتمد عليها النقد فى تقرير هذه الآثار الأدبية العامة ؟ ثلاثة : كمية المعلومات ، ودقتها ، ووضوحها ؛ فنحن ننتظر من الكاتب أن يزودنا من الحقائق بما يستطيع ، وأن يؤديها صحيحة متمايزة الحدود والخواص ، ثم يصورها بأسلوب واضح يجعلها سهلة الفهم والادراك ، فاذا حاول النقد الأدبى التعمق فى درس هذه المقاييس وتفصيلها ، يكون قد تجاوز طوره ، وعدا حده ، إذ أن ذلك من مهمة علوم أخرى تعنى بها كالمنطق ، والفلسفة ، والبلاغة ، فالأولان يعنيان بالحقائق وصحتها ، والثالث يدرس طرق التعبير السهل الواضح لكل فن من الفنون الأدبية ، وسنعرض لشىء إجمالى منه فى المقال التالى إن شاء الله تعالى .

وبعد ذلك لا يعدم النقد الأدبى مجالا ينفذ منه إلى هذا النوع من الأدب العقلى ، ذلك هو ما يلابس الكتابة من عاطفة . وأوهن درجة العاطفة هنا ، تراه فى ثقة الكاتب بما يقرر ، ثم فى عنايته بتوضيحه ، وأخيراً فى حرصه على إذاعته واتصاله بحياة الناس النفسية أو الاجتماعية ، فنجد ذلك يولد فى نفس الكاتب لذة وسروراً بما يكتب ، ويجعل للكتابة روعة ، وخفة وقع ، وشدة

تأثير ورواج ، ثم يكسب الأديب أنصاراً ومؤيدين ، ويهب لآثاره طابعاً فنياً يتجاوز به دائرة العلم الخالص إلى مجال الفن الجميل .

أما إذا أنام الكاتب عاطفته ، وأيقظ عقله معتمداً عليه وحده فى التعبير دون أن تلفحه حرارة الشعور ، كانت النتيجة أنك تقرأ له هيكلا عظمياً من الكلام لا تكسوه عضلات ولا أعصاب . وكان أحرى به أن يكون سجلا لتدوين هذا الحساب العقلى ، أو هو علم ليس غير .

وأجدنى — هذه المرة — حريصاً على أن أذكر بعض الأمثلة المعاصرة لتوضيح هذه الظاهرة . فهذا الأستاذ طه حسين فى كتابه — فى الأدب الجاهلى — أصدق مثال لهذا الأدب العقلى الذى يجمع إلى الحقائق والأفكار شعوراً صادقاً قوياً وهب لأسلوبه روعة وموسيقا لا تكاد تتحقق لغيره من الكتاب . وسبب ذلك ، فيما أرى ، صدق يقينه بما يكتب ، وحرصه على نشره ، وعرضه بشىء من التحدى والاستفزاز ، حتى ليصح أن يدعى بالكاتب الذى يقع على الحقيقة العلمية الخالصة فيحيلها أدباً أو فناً بهذا الأسلوب الواضح القوى الجميل .

أما زميله الأستاذ احمد امين — فى فجر الاسلام أو ضحاه — فقد غلبت على آثاره الناحية العقلية ، واتجه حرصه الأول والأكبر إلى تقرير الآراء والقضايا العلمية مخلصاً لها ، فامتاز أسلوبه بالدقة والوضوح وإن أعوزته نغمات الموسيقى ، وروعة الجمال .

ومهما يكن من الأسباب الموضوعية والشخصية لهذه الفروق ، فانا قد ظفرنا من الرجلين بالأديب العالم ، وبالعالم ... الأديب . والأستاذ العقاد — فى فصوله المنشورة — يمكن أن يكون شخصية تتوسط هذين ، فلا شك أن أفكاره خصبة دسمة ، ولكنها مع ذلك تتراءى لك فى أسلوب قوى تستشف منه اعتزازاً بالنفس ، وتمسكا بالرأى ، وإخلاصاً للفكرة ، جار على كثير من سلاسة الأسلوب وجماله الموسيقى .

ويعيش بيننا الآن طائفة من الكتاب يتمايزون فيما بينهم بصفات يستطيع القارىء المتوسط إدراكها كفتور العاطفة ، والفتنة بالموسيقى الصناعية ، والاعتماد

على الصور المتتابعة إلى غير ذلك مما مرجعه درجة الشعور الذى يسيطر على الكاتب وهو يستوحى القلم والضمير .

— ٣ —

وأما النوع الثانى وهو الأدب بالمعنى الخاص — أو ما يسمى الأدب الصافى Pure Literature فإن غايته الأولى بعث العاطفة وإثارتها ، وتعد الحقيقة فيه وسيلة ولكنها وسيلة لازمة لا قيمة للعاطفة إلا بها ، فإذا كان الأدب هنا كالسفينة ، كانت الحقيقة دفتها ، والعاطفة هى الشراع أو البخار ، ولبيان ذلك نعود إلى مثال المعرى المذكور آنفاً ونسأل أنفسنا عن السر الأول فى هذا السخط الذى بعثه أبو العلاء ، ولو فى بعض النفوس . هذا السر يبدو أولا فى ناحية الحقيقة أو البرهان الذى دعم به دعواه ، وهو ما ينالنا من فناء إلى غير عودة فى الحياة ، فهذه الحقيقة القائمة على الواقع المشاهد صورت للناس — أو لبعض الناس — حياتهم لعبة خاسرة ، فسخطوا ، ولولا هذا البرهان ، لبقيت العاطفة دعوى لا تعتمد على أساس فتذهب هباء لا يبقى .

وهنا تبدو لنا هذه المنزلة الخطيرة التى تنزلها الحقيقة فى هذا النوع من الأدب الخالص ، فليس حقاما قد يتوهمه الناس من أن الأدب صور خيالية تافهة أو عواطف مزعومة أو أفاكيه وعلات الفارغين ، وإنما الحق أن هذا الأدب يقوم على أصدق القوانين العقلية ، فيعرضها عرضا قويا صادقا يجمع بين عمق التفكير وجمال التعبير .

وعند ما يعرض النقد الأدبى لهذا النوع ، يسأله عن الحقائق التى يحتويها ؛ ما قيمتها وما كميتها بجانب سؤاله عن العناصر الأخرى ، وأعظم الشعراء هم رجال المعارف الواسعة ، والتجارب الصحيحة ، والآراء السديدة ، والتفكير العميق ، ويقول كارليل : « إن الشاعر الذى يستطيع فقط أن يجلس على الكرسى وينشىء النظم ، لا يمكن مطلقا أن يقول ما يستحق القراءة . »

وتجد الآراء القوية والعقائد المسيطرة على الحياة أو العصور قد تناولها الشعر ، ولخصها فى تركيز الفن لا فى سفسطة الحواشى والشروح .

من هم زعماء الشعر العربى ؟ ومتى وجدوا ؟ وماذا نفيد منهم ؟ هم شعراء المعانى الذين انتهت إليهم خلاصة الثقافة الإسلامية ، كأبى تمام ، وابن الرومى ، والمتنبى ، والمعرى ، وهم الذين بعثوا بسبب شعرهم فن النقد الأدبى ، وهم الذين كثرت حولهم المؤلفات ، وقامت المدارس ، وغذوا الأدب العربى بثروة لا تبلى ، وجد هؤلاء فى العصور التى نشطت فيها حركة التأليف والترجمة ، فدرسوا وتثقفوا حتى برى شعرهم من سفساف القول ، وبدت فيه نواح موضوعية شتى ، وامتازت شخصياتهم الفنية بقدر ما تيسر لهم من الثقافة والعرفان ، ولاشك أنا نفيد منهم فوق الأساليب ، هذه المعانى المخترعة ، والحقائق الأدبية ، وحسن تصوير الفترات التاريخية التى عاشوا فيها . ألم تتركز أنواع الحياة فى القرنين الرابع والخامس فى شعر المتنبى وأبى العلاء ؟ ثم لاحظ الفرق الواضح بين النثر العربى بداءة العصر الحديث وبينه الآن ، تجد أننا نعيش فى خير عصور النثر الأدبى ، وذلك لهذه الثروة الفكرية التى يذخر بها هذا الفن العظيم فلم تذهب بجماله وزادته قوة وسلطانا على نواحى حياتنا الحاضرة .

وهنا نصل إلى نقطة أخرى تفصل بين هذين النوعين من الأدب ، وهى جدة الحقائق . هل يجب أن تكون الأفكار الأدبية جديدة غير معروفة للقراء ؟ أما النوع السابق — كالنقد والتاريخ — فمن الضرورى اشتماله على معارف جديدة نفيدها منه مادام يرمى إلى التعليم والتثقيف ، لأن الناس لا يميلون إلى قراءة كتاب أو مقال يخبرنا عن شىء نعرفه من قبل جيد العرفان ، ولكن النوع الثانى لا يلتزم هذا القانون إذ كانت مهمته الأولى التأثير ، والتصوير ، ويحسن أن نفسر هذا الكلام ببعض الشىء .

لو حاول الشاعر أن يحشد فى نظمه حقائق الحياة أو العلوم ، ويجعله سجلا فلسفيا — كما فعل المعرى فى اللزوميات — استحال فنه علما وصار كلامه أشبه بالمنظومات العلمية ، ويكون الشاعر هنا قد ترك مهمته التعبيرية إلى مهمة العالم التقريرية . ليست وظيفة الشاعر الجمع والتقرير ، بل الاختصار والتصوير ، فتجده كثيراً ما يتناول الأشياء المنظورة أو الأفكار المشهورة ويحاول تفسيرها أو

تعليلها تعليلا فنياً ، وفي ذلك تظهر براعة الشاعر وجدة معانيه. ولنذكر مثالا لذلك قول المتنبي فى شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عنى وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

فعنصر الحقيقة فى هذه الأبيات هو أن الندى يسقط على أعراف الخيل حين سارت فى الشعب صباحا ، وقد حجبت الغصون عنى حر الشمس ووصل إلى من الضوء مايكفينى نافذاً من بين الأغصان . وإذا حاولنا أن نجد له جدة أو قيمة عجزنا ، فلم يعد هذه الأخبار العادية التى لاتستوقف الفكر ، ولا تزيده ثقافة ، ومع ذلك فالشعر رائع جميل ... لماذا ؟ لأن الشاعر هنا يعرض الوصف الحسى لامجال فيه للفلسفة والأفكار العلمية ، فاعتمد فى التجديد على الناحية التصويرية كما ذكرنا فى الكلام على الخيال ، وأخذ هذه الحقائق التافهة وكساها بتصوره وتصويره فنوناً خيالية بديعة كانت أحسن العوض من ثراء الحقائق والآراء . وليس ذلك سهلا على الشاعر . فانظر إليه يعرض علينا الأغصان إنسانا ينثر الجمان على أعراف الخيل ، ويوصل إلى السائر ماينفعه ويحجب عنه مايؤذيه وهذه الشمس حين أشرقت نثرت عليه دنانير لاتستقر فى اليد ، حتى قال عضد الدولة حين سمع ذلك : والله لألقين فيها دنانير لاتفر ... وقد فعل .

وهذا بعينه هو مايقال فى هذه الأبيات التى أتعبت ابن قتيبة ، والعسكرى والجرجانى وغيرهم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هوماسح

الأبيات — فلن تظفر منها بحقيقة فلسفيه أو علمية ، ولكن ناحية التصوير بالغة فى الحسن درجة ممتازة كما بينا ذلك فى موضع سابق من هذه الصحيفة .

ويقول ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجعلا نصب العين، فيكونا متكئا واستراحة

وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له وبنى عليه لاماسواه ،

ولكن الأدب العظيم هو الذى يجمع بين هذه الجدة فى التصوير وبين الجدة فى التفكير ، فيعرض علينا الفكرة القيمة ، والصورة الحسنة ، ليكون نافعاً ومؤثراً ، وهذا هو مافعله المتنبى حين قال :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم
و ن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

هنا تجد قوانين خلقية ، واجتماعية ، ونفسية تجعل العنصر العقلى غاية الثراء والافادة . وتجد صنوفا من التصور جعلت التصوير الخيالى أقوى ، وأجمل ماينتظر الفنى الأديب . فمن الجهل مايكون هو الحلم إذا دعا الصلاح إلى المظالم ، ومن اللازم الحتم أن تركب شر المراكب حين لابد منها للحياة ، فالناس لئام لايحترمون إلا القوة ولا يرحمون ضعيفاً ، ومهما يكن من المبالغة أو التعميم فى هذه الآراء ، فهى شىء له قيمته يصور لنا هذه الشخصية المجربة الثائرة .

ولا أظننى محتاجاً إلى بيان هذه العناصر الخيالية التصويرية فقد مضى لها أمثلة كثيرة ، وحسبك أن تلاحظ أن عناصرها الدموية ، والحربية ، أليق العناصر بتلك الأفكار الثائرة الناقمة أولا ، ثم هذا الجمال والتناسب فى طرق تأليفها استعارة وكناية ، حتى كان بعد التصور كفاء لقيمة الأفكار .

— ٤ —

على أن آراء المتنبى هذه تسلمنا إلى نقطة أخرى فى هذا البحث : أيجب أن تكون هذه الأفكار صحيحة لا يتطرق إليها خطأ ؟ ألسنا نستطيع الحصول على أدب جميل قيم مع اشتماله على أفكار خاطئة أو آراء سخيفة ؟ لا شك أن عرض هذه المسألة قد يسرع فيثير فى النفوس القطع أو الميل إلى الإجابة عن السؤالين بكلمة . نعم ، ولكن المسألة مع ذلك موضع جدال عريض بين النقاد

كل يتأثر بمزاجه الدينى ، أو العلمى ، أو الفنى ، ولست أقصد بالخطأ الكذب أو بعد الخيال والمبالغة مما عنى به ابن رشيق وأضرابه ، وإن كان لذلك أثر ما فيما نحن بصدده . إنما أقصد الأديب الذى يعرض الحقيقة فيعكسها أو يخطىء فى فهمها العلمى أو الفلسفى . وأقصد الراوى الذى يقيم فكرة روايته أو خطتها على نظريات خاطئة من ناحية التاريخ أو الاجتماع . قال أبو تمام :

ألذ من الماء الزلال على الظما وأطرف من مر الشمال ببغداد

وقد لحظ الجرجانى فساد الفكرة هنا فأخذ على أبى تمام أنه جعل الشمال طرفة ببغداد وهى أكثر الرياح بها هبوبا . وقوله :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد

ذهب الجرجانى فى تفسير هذا البيت مذهبا جعله فاسدا ، لأن الشاعر جعل البلاد إنما تضيق بأهلها لضيق الأرض وأنها لو اتسعت اتساع صدر الممدوح لم تضق البلاد؛ ونحن نعلم أن البلاد لم تخطط فى الأصل على قدر سعة الأرض وضيقها . وأن الأرض تتسع لبلاد كثيرة ، وإنما تضيق البلاد بأهلها لتزاحمهم فيها مع سعة الأرض . وقوله :

سبعون شهراً كلها فى كله لى عايق عن منزلى وبلادى

فجعل للكل كلا ، كما جعل للدهر دهرا فى قوله : —

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهراً أى عابيه أثقل

وهنا أخطاء مذكورة تتصل بالتصوير لا بالتفكير كقوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ، ماماريت فى أنه برد

والبرد لا يوصف بالرقة وإنما يوصف بالصفاقة والدقة . ومثل ذلك النقد مشهور فى هذه الصورة : لا تسقنى ماء الملام . ولكن خطأ التصوير ليس مكانه هنا فلنتركه إلى مسألتنا .

هذه الأبيات التى ذكرت فاسدة المعنى كما يقول الأقدمون ، ويعنون بذلك فساد الفكرة أو الحقيقة . ومع هذا ففيها روعة ، وجمال ، وتأثير ، أى أنها أدب قيم على الرغم من هذا الخطإ ، ولذلك يرى كورثوب Courthope ، أن

قيمة الشعر لا تتوقف على صوابه الفلسفى لكن على ملاءمته لأغراض الفن . ومعنى هذا أن الصواب فى الأدب من حيث الأفكار — شىء ثانوى ، وأن القيمة الجدية فيه تتحقق من ناحية التعبير والتصوير ، وذلك يكون بمثل حسن التعليل ، وجمال التشبيه ، ودقة الكتابة ، وسلامة العبارة ، حتى لقد سئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هجو ذويك ومدح أعاديك . يريد الذى تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وصمة وخلاف للشهوة ، وهذا قول أبى الطيب أولا : —

وأسمع من ألفاظه اللغة التى يلذ بها سمعى ، ولو ضمنت شتمى

ومثل هذا قيل فى صلة الشعر بالدين حين يفصل النقاد بين عقيدة الشاعر ودرجته الفنية فى التعبير الأدبى حتى قال الجرجانى : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاب من أصحابه ، بكما خرسا ، وبكاء مفحمين ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » — فأنصار قبول الخطإ الفكرى فى الأدب يتسامحون فى التضحية بالصواب ، معتمدين على أن الأدب ليس علماً ، ولا فلسفة مما يطالب بالصدق فى الحقائق ، ولكنه فن تبدو ميزاته ، وتنحصر مهمته فى العناصر الأخرى كصدق العاطفة ، وروعة الخيال ، وموسيقا الأسلوب ، وقد مرت أمثلة لذلك .

غير أنه لا يفوتنا هنا أن نعترف بأن هذا الأدب الذى — على جماله — يعوزه الصواب ، لا يتساوى فى قيمته الفنية مع هذه النصوص الأخرى التى فازت بصحة الفكرة وجودة الأداء ، وذلك لأن الأدب كما يقولون ليس إلا تصويراً للحقائق بوساطة الخيال ، فاذا ما عرض للحقائق مخطئاً أثر ذلك فى هذا التصوير وهون من حسنه وقيمته . أما إذا وجد الخيال سنداً من قوة الحقيقة ، وصدق التفكير فهناك الشعر الجميل الخالد .

ويرحم الله أبا العلاء فقد قال :

كل بيت للهدم ، ما تبتنى الور ... قاء السـيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ ... ـدر ضرب الأطناب والأوتاد
بان أمر الاله ، واختلف النا ... س ، فداع إلى ضـلال وهاد

— ٥ —

وهنا ألتقى بنواح شتى عميقة معقدة تتم الكلام فى هذا العنصر الأدبى الخطير وتتصل أشد ما تتصل بفنون لما تنضج فى الأدب العربى ، كالقصة والرواية التمثيلية ، ونتناول شرح بعض المذاهب الفنية العامة والأدبية الخاصة ، كالواقعية Realism والمثالية Jdealism ، والكلام فيها يمل ، ويطول ، وتعوزه فصول خاصه مطولة قد لا تحتملها الصحيفة ، ولكنى أتركها على أن أعود إليها حين تضطرنى الدواعى والمناسبات .

وأختم هذا البحث بنقطة يوضحها السؤال الآتى : — ما الصلة ، إذا ، بين الأدب والحقيقة ؟ وهل يحرص الأديب الخاص على تناول جميع النقط والأفكار التى تعرض له واصفاً ، أو غزلا ، أو راثياً ، أو راوياً ، أو خطيباً ؟ أبسط ما نعرفه عن هذه الصلة أن الحقيقة عنصر من عناصر الأدب تدخل فى تلوينه لاغنى له عنها ، بل لاوجود له ولا خلود بدونها . وقد استوفينا شرح ذلك فى الفصول السابقة . والآن نلفت النظر إلى شىء آخر هو أن الاستقصاء وتناول الجزئيات التفصيلية ليس من طبيعة الأدب ، بل من وظيفة العلم الذى يعنى بكل شىء حتى يستطيع التقسيم ، والتبويب . والموازنة ، وإصدار الأحكام الحاسمة .

فهذه الصلة تقوم على اختيار الأدب ببعض الحقائق ، أو المناظر ، أو الحوادث الهامة التى يجد فيها ما يؤثر به فى القراء والسامعين ، وسبيله إلى ذلك أن يقع الأديب على هذه الجوانب التى أثارته أو راعته — لأنه أدرك فيها جمالا محبوءا أو سراً عميقاً — فيعرضها فى أسلوبه الصادق ، وقد مثلنا لذلك برثاء البحترى ووصف ابن خفاجة . وهذا شوقى فى قصيدة أبى الهول ، راعه منه شباب دائم ، وعمر مديد ، وسفر فى خلال الحقب ، وسخرية بالملوك والدول ،

إلى غير ذلك من أسباب العظة والاعجاب ، فهل أحصى شوقى سنيه وأيامه ، ونواحيه وأحجاره ، كلا فليس عالما مدققا ، ولكن فنياً مفسراً . وهل يعذر النقاد المحدثون حين يأخذون على معلقة طرفة استقصاء ، ودقة ، فى وصف الناقة مما ليس من طبيعة الشعر ؟ وهل تبيح لهم هذه الظاهرة العلمية أن يرفضوا أو يشكوا فى صحته ، وأن يفرضوا أنه من صنعة العلماء ؟

ومن بدائه الحياه وعجائبها ، وعظمة الفنون وتنوعها ، أنك لا تجد اثنين من الأدباء يتفقان فى كل ما يختاران من نقط التأثير لاختلاف الأمزجة ، والآراء والشخصيات عامة ، فتجد من آثار الشعراء ، والكتاب ، والروائيين ، صورا شتى للشيء الواحد . وكلها — على اختلافها — جميل . مؤثر ، صحيح لا تنكره قواعد الفنون والآداب ، ومن هذه الناحية يخضع الأدب لسلطان الشخصيات ، الذى يرفضه العلم ، ويعده خطأ وجناية على حقائقه الموضوعية الخالصه ، ولا أجدنى محتاجا إلى تكرار ما سبق من الأمثلة التى توضح هذه الظاهرة ، فإن فعلت أثقلت حين يحتاج القراء إلى الراحة من هذا العناء ؟

أحمد الشايب